بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

عصر ابن رشيق

١ — شخصية المغرب العلمية والأدبية

١ — لما كان ابن رشيق القيروانى مغربى النشأة والمربى — كما سنذكره بعد — لزم أن نعرض فى إيجاز للمغرب ، ونبين ما كان عليه أهله من حيث الدراسات الأدبية والنقدية وهى التى برز فيها صاحبنا ، ونقارنهم بالمشارقة.

ونعنى بالمغرب شمال إفريقية والأندلس — وكلاهما غرب فى الاصطلاح يومذاك . وموجز الرأى فى أمر المشرق والمغرب « إنه لم تضع حدود الإقاليم حواجز وفواصل فى سبيل العلماء والأدباء والكتاب والشعراء، فالقالى (٢٨٨هـ — ٣٥٦هـ) الذى نشأ فى أرمينية وتأدب ببغداد علم وأنتج فى أسبانيا » « وحياة المتنبى كان مجالها بين العراق وسورية ومصر وفارس . وهذا يبين إلى أى مدى تشابهت إذ ذاك فى جميع البلدان نظم الحياة الأدبية وشروطها »(٢)

فإذا نظرنا إلى المغرب فى ضوء هذه الحقيقة رأينا له من وضعه الجغرافى ، بين العرب المستقرين فى موطنهم الأصلى حيث المشرق ، وبين العرب النازحين إلى موطنهم الجديد حيث الأندلس ، مكاناً آخر ، ذلك أنه صار لهذا الموضع الطبعى محط جميع العلماء والأدباء .

فالراحلون من المشرق إلى الأندلس ، والآيبون من الأندلس إلى المشرق يمرون بالمغرب . بل كثير من هؤلاء وأولئك حطوا رحالهم فى القيروان ، مدينته الكبرى قبل ابن رشيق وإلى أيامه ، مدينة العلم والأدب وبغداد المغرب .

---

(١) العربية ليوهان فك ص ١٦٨ . (٢) العربية ليوهان فك ص ١٦٩ .

فهذا أبو الفضل عبد الواحد الدارمى البغدادى يقدُم رسولا من قبل القائم بأمر الله العباسى ، إلى المعز بن باديس أمير المغرب وحاكمه ، فى مهمة تتعلق بشئون الحكم والسياسة ، فتحلو له القيروان ويقيم بها ، وينتظم فى سلك رجال المعز الأدباء ، ثم لا يعود إلى بغداده .

وهؤلاء هم شعراء الأندلس ينزحون من أندلسهم ليستقروا فى رحاب ذلك الأمير الذى يبذل فى تكريم الشعراء ما لا يكاد العقل يصدقه فيكون من وراء ذلك كله أدب جم وعلم غزير .

٢

ومع إيمانى بتأثير البيئة فى إنتاج الأديب من شعر ونثر ، فإنى أرى أن ذلك التأثير لا يتضح فى العلوم التى يستوى أمامها الناس ، والتى لا تختلف كثيراً باختلاف البيئات والأزمان ، وإنما يتضح فى الفنون إذ هذه تنطبع فيها فوق شخصية الفنى صورة المكان والزمان بخواصهما .

وابن رشيق وإن يكن شاعراً فهو عالم حين يخوض فى حديث النقد والأدب ، وسنرى بعد إلى أى حد نضحت فى إنتاجه بيئته وعصره .

ثم علماء المغرب وأدباؤه كانوا ينظرون إلى المشرق ورجاله على أنهم الأب الروحى لهم ، وتقضى سنن الطبيعة وقوانينها المقررة بأن « الأدنى يأخذ عن الأعلى » [1] فلا عجب أن يتمنى المغربيون لو كان فى المشرق مقرهم ومطلعهم . وهذا أبو محمد على بن سعيد بن حزم (٤٥٦هـ) يبكى حظه أن كان غربيًّا أندلسيًّا فيقول :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة ... ولكن عيبى أن مطلعىَ الغربُ
ولو أننى من جانب الشرق طالع ... لجد على ما ضاع من ذكرىَ النهبُ

(١) تيارات أدبية ص ١٢٥ – ١٢٧ .

ولى نحو أكناف العراق صبابة ولاغرو أن يستوحش الكلف الصبّ[١]

وما يصدر هذا الشعر إلا عمن يكون الشرق فى نظره ، وفى واقع الأمر ، أثبت شأناً وأرسخ قدماً فى العلوم والفنون والآداب .

٣

« وكان لا يظهر كتاب علم أو ديوان شعر لنابغة من نوابغ العرب فى الشرق إلا تهاداه أكابر الأندلس وعلماؤه ، واستنسخوه وتداولوه »[٢]

يقول الدكتور أحمد ضيف — رحمه الله . « وجدنا ظاهرة التقليد للمشرق واضحة جلية ، إذ تصاغ الكتب الأدبية على يد الأندلسيين على شكل الكتب الأدبية عند المشارقة ، ويصاغ العقد الفريد على شكل عيون الأخبار ؛ ويراه الصاحب بن عباد فيقول : هذه بضاعتنا ردت إلينا »[٣]

ويقول ابن خلدون «وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن — يريد البيان — أقدر من المغاربة »[٤]

ويقول ابن بسام : « إن أهل هذا الأفق — يريد الأندلس — أبوا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب لحثوا على هذ صنما ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً . »[٥]

ويزيد على ذلك ما يكشف عن رغبة أهل المغرب فى مجاراة أهل المشرق أو الزيادة عليهم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا فيقول : « فغاظنى منهم ذلك ،

---

(١) المعجب ص ٤٨ .

(٢) منهل الوراد حـ ٣ ص ١٨٣ .

(٣) مقدمة لدراسة بلاغة العرب ص ٣٠١ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٦٤٦ .

(٥) الذخيرة — القسم الأول مجلد ١ ص ٢ .

وأنفت مما هنالك ، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة ، وتصبح بحاره ثماداً مضمحلة . وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان ، واختص أهل المشرق بالإحسان [١]

والأمر قريب من هذا فى الحياة السياسية فالناصر يلقب نفسه بالخليفة ، وأمراء الطوائف يلقبون أنفسهم بالرشيد والمأمون والمتوكل والناصر والمنصور والمعتمد والمعتضد حتى يقول ابن شرف :

مما يزهدنى فى أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد [٢]

وهكذا كان احتفاء المغاربة بالمشارقة وإكبارهم لهم كإكبار بعض المشارقة اليوم لأهل الغرب ، حتى لكان همّ أحدهم أن يقال عنه إنه يشبه أحد رجال المشرق . يقول الثعالبى فى حديثه عن ابن دراج « كان بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام »[٣]

وقد كانت الكتب التى تؤلف فى الشرق تنقل إلى الغرب بمجرد أن يبيعها أصحابها . يقول صاحب معجم الأدباء : « ولعل من الغريب أن يعرف القارئ أن كتابى البيان والتبين ، والتربيع والتدوير ، نقلا فى حياة الجاحظ إلى الأندلس »[٤]

ولا مانع عندى من القول بأنه كانت هناك بعثات تفد من المغرب على المشرق ، وليس الأمر أمر فرد ، ولكنه أمر جماعات ، جاءت إلى المشرق تنهل من موارده ، وتأخذ عن علمائه ، ويكفى لصحة ذلك وتأكيده أن يعقد ياقوت الباب الخامس من كتابه معجم الأدباء « فى التعريف ببعض من رحل

---

(١) المصدر السابق — الصفحة نفسها .
(٢) أبو الفدا تحت حوادر سنة ٣٥٠ هـ .
(٣) اليتيمة جـ ٢ ص ٩٠ .
(٤) معجم الأدباء جـ ٦ ص ٧٦ .

إلى بلاد المشرق الزاكية العرار والبشام ، ومدح جماعة من أولئك الأعلام ، لشامة وجنة الأرض دمشق الشام — ويقول — اعلم أن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال ، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب ، ولو أطلقنا عنان الأقلام لطال الكتاب وكثر الكلام . . . »[١]

ومع أن ياقوتاً لا يطلق للكلام العنان ، فإن حديثه عن هؤلاء المبعوثين يستغرق الجزء السادس والجزء السابع من الكتاب — ولا غرابة فى أن يتجه الفرع إلى أصله ، ويعاود الطير الحنين إلى دوحه .

٤

وبعد فمن المفروض ، إلى أن يتم التحقيق ، أن ابن رشيق لم يختلف عن أهل عصره ، ولم يخرج على قوانين الحياة ، وأن يكون تأثر بالمشارقة فى تناوله الأدب ناقداً ومؤرخاً وبلاغيًّا ؛ ويكون هو نفسه بذلك دليلا على أن المعارف الإنسانية تتشابه إلى حد كبير برغم اختلاف البيئات ، ودليلا كذلك على أن اللغة حين تسود فى جهات كثيرة لا تختلف فى قواعدها وقوانينها وإن اختلفت فى لهجاتها وموضوعاتها ، لا سيما إذا كانت تعتصم من ذلك الاختلاف بكتاب مقدس تدور حوله ، ومعقل حصين تأوى إليه . واللغة العربية من هذا القبيل ، فهى مرتبطة بالقرآن الكريم ، ذلك الكتاب الذى لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا إنه كان الملهم لكثير من البحوث اللغوية على اختلاف مناحيها ، وكان هم العلماء المحافظة على سلامته ببيان طرق استعمال لغته ورسم قواعدها ، وحد حدودها ، وتوضيح « المقتضيات التى يتطلبها مبدأ (تنقية اللغة)[٢] » وقل أن تجد كتاباً فى علم من هذه العلوم — علوم اللغة — لم يتشفع مؤلفه إلى القراء فيه بمقدمة

---

(١) معجم الأدباء جـ ٦ ص ٥ .

(٢) العربية — بوهان فك ص ٩٠ .

يوضح فيها ما لذلك العلم من العلاقة بالدين »[١] كأنما وضعت المعارف اللغوية جميعها لخدمة الدين .

٥

والمتتبع لابن رشيق فى آثاره يرى أنه كثير النقل عن المشارقة، بل ليست مصادره فى جملتها إلا ما قرأه من مؤلفاتهم ، ولا يكون هذا إلا عن إيمان منه بفضلهم ، وعرفان لمزيتهم ، بل إنه ليصرح بذلك حين يقول : « إلا أن للمشرق فضيلة ومزية »[٢] وذلك عند حديثه عن مواردته لأبى الحسن التهامى وتصريحه بأنه سبقه .

٦

وخلاصة فكرتنا أن الأدب العربى حين احتل الأقاليم الإسلامية كان يؤثر فى ثقافتها أكثر مما يتأثر هو بها . وكان يفرض نفسه على هذه الأقاليم بسبب مقوماته التى اشتقها من الدين ومن السياسة ومن الفنية ، فبقيت صورته الفصحى غالبة ، موحدة على العموم ، وهذا التوحيد حفظ عليه وحدة القالب وتقارب الفكرة وتوافق المنهج إلى حد كبير .

أما الإقليمية المحلية فيمكن أن نراها فى الأدب الشعبى ، فى لغته العامية ، وفى خصائصه المتباينة . ولذلك مواضعه من البسط والتوضيح فى غير هذا البحث

ب — الحالة السياسية :

نشأ ابن رشيق فى المغرب الأدنى ثم انتقل آخر حياته إلى صقلية تلك الجزيرة الواقعة فى البحر الأبيض المتوسط على ما سنذكره مفصلا بعد ، ولما

---

(١) منهل الوراد ج ٢ ص ١١٧ .

(٢) قراضة الذهب ص ٥٠ .

كان للبيئة على ما قدمت الأثر الكبير فى شخصية الفرد لا سيما إذا كان شاعراً أو ناقداً فمن الحتم التعرض للحالة السياسية ، ومن مدن هذا الجزء فى القديم تونس[١] . والقيروان ، والمحمدية وهى المسيلة ، وصبرة ، إلى غير ذلك من المدن التى نجد أسماءها فى معاجم البلدان القديمة ولا يزال بعضها قائماً إلى اليوم . وقد بقيت تونس بعد الفتح الإسلامى تابعة فى إدارتها لولاة مصر إلى أن كان منتصف الدولة الأموية تقريباً فانفصلت عنها ، فلما كان عصر الرشيد تولى عليها ابراهيم بن الأغلب وأورث هذا بنيه ولايتها من بعده فظلوا يتعاقبون عليها حتى انتزعها منهم الفواطم العبيديون سنة ٢٩٦هـ .

ولما استولى الفاطميون على مصر (٣٥٨هـ.) وبنوا القاهرة قاعدة لملكهم صارت تونس ولاية يتعاورها ولاتهم الذين يحكمون لحسابهم ، فولّى المعز لدين الله الفاطمى عليها قبل مسيره إلى مصر بلكين بن زيرى سنة ٣٦١ هـ . فاتخذ هذا مدينة القيروان قاعدة لولايته .

وفى سنة ٣٧٣ هـ . مات بلكين الذى كان يعترف للفاطميين بالتبعية[٢] وخلفه فى الحكم ابنه المنصور الذى تولى سنة ٣٨٦ هـ. والذى قام فى مقامه ولده باديس[٣] .

وكان لباديس هذا حق تعيين العمال والولاة[٤] فى البلاد التى تخضع لحكمه ، فولى عمه حماد بن بلكين ناحية أشير إحدى مدائن المغرب الأوسط يومئذ . فأنشأ بها قلعة حصينة . وأقام لنفسه ملكاً داخل ملك ابن أخيه يتمتع فيه بكثير من مظاهر الاستقلال برغم اعترافه له بالتبعية ، « وحماد هذا هو الذى أنشأ القلعة المعروفة « بقلعة حماد » بالقرب من بجاية وسكنها هو وخلفاؤه من بعده »[٥]

---

(١) كانت كلمة تونس تطلق ويراد بها شمال إفريقية — حقق ذلك سعادة حسن حسنى باشا وزير معارف تونس المعاصر وعضو المجمع اللغوى بمصر .

(٢) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٧٥ .

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٦ .

(٤) العمال جمع عامل وهو الحاكم والوالى .

(٥) تعليق بخط حسن باشا حسنى عبد الوهاب كاتب مقدمة رسالة ابن رشيق ونقد الشعر للمؤلف

ومنذ تلك اللحظة أصبح فى المغرب فريقان : بنو حماد فى قلعتهم الحصينة بأشير ، وبنو باديس فى القيروان والمهدية .

وفى سنة ٤٠٦هـ توفى باديس وخلفه ابنه المعز[١] الذى أعلن انفصاله عن العبيديين واستقلاله بالمغرب ، إذ خلع طاعتهم . وخطب للخليفة العباسى فى بغداد ، القائم بأمر الله ، وكان ذلك فى سنة ٤٣٩هـ[٢] . وقال لرسول المستنصر الفاطمى العبيدى حين وفد عليه : « قل لصاحبك إن لنا ملك إفريقية قبل أن يكون للعبيديين ذكر »[٣] . وكان ذلك بداية قيام فتن بين المعز وبين أبناء عمومته بنى حماد ، إذ خلعوا هم كذلك طاعته ، وأشعل نار الفتن العبيديون الناقمون من القاهرة بما أوحوا القبائل بنى هلال أن يغيروا على المعز تارة وعلى بنى عمومته تارة أخرى .

وهكذا ضعف الأخوان . وأظهر المغيرون عليهم من الجرأة ما عجز المعز معه عن دفع غاراتهم على القيروان فأشار على أصحابه أن يرتحلوا إلى المهدية وكان عليها ولده تميم من سنة ٤٤٥هـ . أما هو فخرج إليها سنة ٤٤٩هـ .[٤] واحتل الثوار القيروان ، وعاثوا فيها تخريباً وهدماً وإحراقاً على جارى عادات القبائل الهمجية .

ومن ثم لحقت القيروان نكبة عدّت من أكبر ما نكبت به مدينة فى التاريخ الإسلامى « فاندكت بذلك معالم مدينة من أزهى وأزهر مدنيات هذه البلاد ، وفى ذلك يقول شاعر بلاط المعز ، الحسن بن رشيق :

حسنتْ فلما إذ تكامل حسنها ... وسما إليها كل طرف دان
وتجمعت فيها الفضائل كلها ... وغدت محل الأمن والإيمان
نظرتْ لها الأيام نظرة كاشح ... ترنو بنظرة كاشح معيان

---

(١) الكامل لابن الأثير حـ ٩ ص ٩٤ تحت حوادث سنة ٤٠٦ .
(٢) صبح الأعشى حـ ٥ ص ١٢٤ .
(٣) المعجب ص ٢٠٤ .
(٤) الحلل السندسية ص ٢٣٩ .

حتى إذا الأقدار حمّ وقوعها ودنا القضاء لمدة وأوان
أهدت لها فتناً كليلٍ مظلمٍ وأرادها كالناطح العيدان
لو أن ثهلانا أصيب بعشرها لتدكدكت منها ذرا ثهلان[١]
حزنت لها كور العراق بأسرها وقرى الشآم ومصر والخرسان[٢]

وفى المهدية قضى المعز بقية حياته إلى أن مات سنة ٤٥٤ هـ . وحكم بعده ابنه تميم . وعُمّر فى الحكم طويلا إذ مات سنة ٥٠١هـ. وكان من خير الرجال حكماً وعقيلا وأدباً .

حـ — صقلية :

أما عن صقلية فقد فتحها المسلمون أيام حكم الأغالبة بأفريقية سنة ٢١٢هـ. وظلت تحت حكم المسلمين حتى نزح إليها من الأفريقيين جماعة فى إثر جماعة سنة ٣٩٥هـ . وكانت يومئذ تحت حكم جعفر بن يوسف بن عبد الله الكلبى ، فرحب بالنازحين أهلها ، « وأفسحوا لهم فى مكان العيش ، ويسروا لهم أسباب الارتزاق . »[٣]

وفى سنة سنة ٤١٧ هـ . قصد إليها ابنا المعز بن باديس : عبد الله وأيوب فاتحين . فقتلا حاكمها ودبرا الأمر فيها . بحكمة ، وفكرا فى غزو النرمان وأعدّا لذلك العدة ، وأمدّهم أبوهم بأسطول ضخم ، وبينما النفوس متطلعة إلى نصر مبين ، هبت عاصفة على الأسطول فأغرقته ، وأغرقت معه الآمال ، وكانت سبباً فى ضياع صقلية بعد ، وفى طمع الهلاليين فى ملك المعز بشمال إفريقية . كما اجترأ النرمان على الجزيرة ، وحاول أيوب ابن المعز أن يستردها منهم ، ولكن جماعة من المسلمين انضموا إلى النرمان فأفسدوا على أيوب تدبيره . وقرر وجوه القوم الانسحاب من الجزيرة إلى المهدية فركبوا إليها الأسطول حاملين

(١) ثهلان : اسم جبل .
(٢) المسلمون فى جزيرة صقلية ص ١٨٢ .
(٣) المسلمون فى جزيرة صقلية ص ١٨٢ .

معهم جميع من رأى الانسحاب من الجزيرة من خاصة القوم وأعيانهم وعامتهم ، وكان ذلك سنة ٤٦١ هـ . وبذلك خلا جو الجزيرة للنرمان فأطلقوا فيها أيديهم.

* * *

ذلك مجمل ما كانت عليه حالة العصر السياسية فى شمال أفريقية وفى صقلية أيام ابن رشيق ، وسنرى كيف كان الاطمئنان بالحياة فى القيروان ثم الاضطراب الذى أصابها وأصاب المنطقة كلها ، — كان — ذا تأثير فيه — وهكذا تعمل السياسة فى حياة العلماء والأدباء ، يتأثرون بها ، ولا يعتصمون منها فى الهدوء والاضطراب . . . .

* * *

د — الحالة الاجتماعية :

يمكن أن نقول إن حياة الناس فى هذه الفترة كانت تتلون بلون الحياة السياسية ، فإذا هدأت الفتن ، استقرت أمورهم وانصرفوا إلى معايشهم ، وأقبلوا على الإنشاء والتعمير . يقول صاحب « المسلمون فى جزيرة صقلية » عن المعز وعصره : « وكانت له مدنية من أجلّ وأروع ما رأته البلاد الإفريقية »[1] وتتجلى هذه المدنية فى أن كان للدولة نظام يضارع أحدث النظم فى عصرنا الحاضر ، فقد كانت هناك دواوين يقوم بالأمر فيها رجالات من أصحاب الثقافات الواسعة « وكانت الدواوين ثلاثة : ديوان الجيش ، وديوان الجباية ، وديوان الرسائل »[2] « ويتلو الجباية ديوان المراسلات أو تحرير المكاتبات والصكوك الصادرة عن الأمير لمخاطبة عمال الجهات والولاة والقواد وغيرهم . وكان هذا الديوان فى دولة المعز منتصباً بمدينة صبرة — على نصف ميل من القيروان — بمقربة من منزل الملك ، وهو يحتوى على أكثر من مائة كاتب بليغ كابن رشيق وابن

---

(١) المسلمون فى جزيرة صقلية ص ١٧٨ .

(٢) بساط العنبر فى تاريخ القيروان وشاعرها ابن رشيق ص ٢٨ .

شرف ويرأسهم أبو الحسن على بن أبى الرجال الشيبانى . مربّى المعز بن باديس وكاتب سره . »[١]

أما حين اضطربت الأمور ، واندلعت نار الفتن فإن القوم اضطربوا فى معايشهم ، واختلت حياتهم ، ونطقت بهذا ألسنتهم . وهذا تميم بن المعز الخليفة يشكو ذلك الاضطراب وتلك الفتن وكيف تجعل العالى سافلا والسافل عالياً فيقول :

يا دهر ما أقساك من متلون ... فى حالتيك وما أقلك منصفاً
أتروح للنكس الجهول ممهراً ... وعلى اللبيب الحر سيفاً مرهفاً
وإذا صفوت كدرت ، شيمة باخل ... وإذا وفيت قطعت أسباب الوفا[٢]

ويقول يستنهض همم قومه ويستنفرهم للذود عن الحياض ورد المغير :

متى كانت دماؤكم تطلُّ ... أما فيكم بثأر مستقلُّ
ونمتم عن طلاب المجد حتى ... كأن العزم فيكم مضمحلُّ

فهذا الشعر ، مهما تكن مرتبته الفنية ، يصور لنا حياة القلق التى اعتورت البلاد فى هذه الفترة من حياة الدولة الصنهاجية أخريات أيام ابن رشيق .

هـ — الحالة العلمية والأدبية :

وهذه نقول فيها إن ضيق رقعة البلاد ، واعتزاز المعز بالحكم ، وزهوه بالاستقلال عن الفاطميين ، ورغبتهم فى أن يظهر أمامهم — وقد استقل عنهم وأصبحوا له أعداء — بمظهر الند ، إن لم يكن بمظهر المتفوق السبّاق ، ثم ما وهبه من حب للعلم وما جبل عليه من تعلق بالأدب وأريحية للأدباء ، نقول ، إن ذلك كله هيأ فرصة طيبة لحياة علمية وأدبية نامية حية فى هذه الفترة بتلك البلاد .

---

(١) بساط العقيق فى تاريخ القيروان وشاعرها ابن رشيق ص ٣٣ .
(٢) المسلمون فى جزيرة صقلية ص ٨٤ .
(٣) طل دمه : ذهب هدراً .

قال المراكشي « وكانت القيروان هذه فى قديم الزمان ، منذ الفتح إلى أن خربها الأعراب ، دار العلم بالمغرب ، إليها ينسب أكابر علمائه وإليها كانت رحلة أهله فى طلب العلم ، وقد ألف الناس فى أخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ، ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء والمتبتلين ، كتباً مشهورة ككتاب أبي محمد بن عفيف وكتاب ابن زيادة الله الطيبي »[١]

ويكفى فى التدليل على نهضة العلوم والآداب فى هذه المدينة أن يجد ابن رشيق — المترجم له — من شعرائها — دون غيرهم من رجالات اللغة والفقه والتفسير والحديث ، ومن أهل الزهد والتصوف إلى آخر من هنالك من رجالات العلم من يؤلفون مادة لكتاب خاص بهم هو « أنموذج الزمان فى شعراء القيروان » وبرغم « أن المكتبات العمومية قد خلت منه فيما يعلم الميمنى »[٢] فإنا نجد بين دفات الكتب — لا سيما كتب التراجم . نقولا منه كثيرة .

هذا عن الحركة العلمية فى القيروان ، ولذا لا نعجب أن يرثيها محمد بن أبي سعيد المعروف بابن شرف فيقول :

ترى سيئات القيروان تعاظمت ... فجلت عن الغفران والله غافر
تراها أصيبت بالكبائر وحدها ... ألم تلك قدماً فى البلاد الكبائر ؟

* * *

أما عن المهدية « وبينها وبين القيروان مسيرة يومين »[٣] فإن لنا أن نسمع رأى أحد المؤرخين فيها وهو يقول : « وقد ازدان ملك صنهاجة بالمهدية كما ازدان بالقيروان . فكان فيها بلاط فاخر ، التفت حوله ثلة صالحة من رجال العلم وأعلام الأدب وكبار الفلاسفة والشعراء .

وكانت أيام المهدية على صغر المملكة ، وتعاقب الحروب بينها وبين

---

(١) المعجب ص ٣٥٦ .
(٢) ابن رشيق للميمنى ص ٣١ .
(٣) مسالك الممالك ص ٣٦ .
(٤) بساط العقيق ص ٣٩ .

الهلاليين أياماً مشهودة فى تاريخ الفن والعلم والأدب . .. وقصدها من كل ناحية أمثال فيلسوف الأندلس . . . وكان أمير المهدية ، تميم ، من خير الرجال عقلا وأدباً وحسن إدارة ، ومعرفة بأصول الأدب والشعر »[١]

وانتجع حضرته جماعة من شعراء المغرب والأندلس ، منهم أبو إسحق ابن أبى خفاجة فى صباه ، وعبد الله بن عبد الجبار الطرطوسى ، وأبو الحسن على بن عبد العزيز الحلبى المعروف بالفكيك ، وغيرهم . . وخدمه بالشعر من أهل إفريقية جماعة أيضاً . . ومدحه قبل هؤلاء شعراء المعز أبيه »[٢]

و « بالجملة فإن العلم ازدهر بإفريقية فى القرنين الرابع والخامس ازدهاراً لم يسبق مثله بسبب انتشار التعليم ، ومساعدة ولاة الأمر والوجهاء الذين كانوا يفرضونه على أولادهم ، ونسائهم ، وجواريهم ، وخدمهم عملا بأوامر الشريعة السمحاء »[٣]

* *

ولا يفوتنى هنا أن أذكر أن قد كان للمكتبات والكتب فى ذلك العهد شأن كبير . يدل على ذلك أن المعز « أهدى مرة إلى أبى بكر عتيق السوسى تسعمائة مجلد من نفائس الكتب . أرسلها إليه على رءوس الحمالين عقب مجلس علمى ، استحسن فيه الأمير آراء ذلك الأديب »[٤] فإذا صح هذا الخبر أو قارب الصحة فما بالنا بمكتبة الأمير إذن ؟ قالوا وأهدت جدته ، وهى حاضنة باديس والده كتباً جميلة إلى المكتبة العامة التى كانت فى البيت المجاور للمحراب من الجامع الأعظم . ومن بين هديتها مصحف بخطها على رق مزوق بالذهب .»[٥]

* * *

أما عن النشاط العلمى والأدبى فى صقلية فيكفى أن تعلم أن قد نبغ فيها

---

(١) المسلمون فى جزيرة صقلية ص ١٨٤ .
(٢) المجموعة المغربية ص ٣٠٧ .
(٣) بساط العقيق ص ٣٨ .
(٤) بساط العقيق ص ٣٩ .

مؤرخون ومحدثون ولغويون ونحويون وفقهاء لهم فى الثقافة مكانتهم ، منهم ابن ظفر الصقلى المؤرخ الأديب المتوفى سنة ٥٦٥ هـ . صاحب كتاب « أنباء نجباء الأبناء » وابن القطاع الأديب اللغوى المتوفى سنة ٥١٥ هـ. وابن حمديس الصقلى الشاعر الذى رحل منها فى ظروف سياسية أشرنا إليها وعاش فى كنف الأمير تميم بن المعز ، إلى غير هؤلاء ممن لا نطيل بذكرهم .

فى هذه البيئة العلمية الأدبية الصاخبة ، وبين جدران هذه المكتبات العامرة ، وفى بلاط المعز ، وتحت ظل ابن أبى الرجال نشأ ابن رشيق القيروانى وعاش حتى مات ، وهذا أوان أن نفصل القول فى حياته .